مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

غير مصرح بأعارته من المكتبة

العدد الخامس

١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

الزينة في الشعر الجاهلي

زينة الشعر والخضاب

الدكتور
يحيى الجبوري
أستاذ بقسم اللغة العربية

من قال (الشعر تاج المرأة) أصاب كبد الحقيقة وأدرك سر الجمال ، وخاصة إذا كان ذلك الشعر طويلاً مسترسلاً يحيط بالوجه وينسدل على الأكتاف ، فيوضح جمال الرقبة ويبرز فتنة القوام . وإذا كان لون الشعر أسود فقد أعطى البشرة البيضاء رونقاً ونصاعة ، وأعطى البشرة السمراء عمقاً وحيوية ، أما إذا كان لون الشعر أشقر أو أحمر فينبغي أن ينسجم ولون البشرة ، فإذا وافق البشرة البيضاء فقلما ينسجم مع البشرة السمراء .

وقد عنيت المرأة منذ أقدم العصور بشعرها فسرحته وأرسلته وعقصته أو جعدته ، وصبغته بالحناء والوسمة والكتم والزعفران ، وعطرته بأنواع العطور ودهنته بأصناف من الدهون والزيوت ليلين وينعم ويلتمع ، وغسلته بأنواع الغسول كالسدر والغِسْلة والأشنان قبل أن يصنع الصابون وتعرف المنظفات الحديثة ، وقد تغنى الشعراء منذ القديم بشَعَرِ المرأة فأحبوه ووصفوه وشبهوه بالليل ، وخيوط الحرير ، وعناقيد الكرم ، وعذوق النخل ، وعساليج العنب .

شعر الرجال :

ومثلما تعنى النساء بشعورهن فترجله وتدهنه وتعطره ، فكذلك كان يفعل الرجال ، وقد اهتم الجاهليون بشعورهم ، وشعرهم أسود يتركونه ينمو ويطول ولا يحلقونه كما كان يفعل اليهود والمصريون (١) ، وكانوا يمشطونه ويدهنونه ويجعلونه يتدلى على المنكبين ،

(١) اشعياء الاصحاح ٢٠/٧ ، حزقيال ١/٥ ، وقاموس الكتاب المقدس ٦٨/١ ، وانظر جواد علي ٦١١/٤ .

وقد يضفرونه ضفائر ، ومنهم من يضفره ضفيرتين يجعلهما تتدليان على جانبي الوجه .

الجعد والسبط :

ولا شك أن منهم من كان شعره سبطاً مسترسلاً ، ومنهم من كان شعره جعداً متثنياً ، ولعل كثرتهم كانوا من ذوي الشعر الجعد بدليل أنهم كانوا يكنون عن العربي بالجعد وبالأعجمي بالسبط(٢) ، والمعروف أن الفرس والروم من ذوي الشعر السبط ، أو أن السبوطة هي الغالبة على شعورهم ، وجعودة الشعر خلاف السبوطة ، و يُراد بها قصر الشعر . وقد يطلقون كلمة الجعد على الكرم أي كون الرجل كريماً سخياً ، وقد تستعمل للؤم والبخل من باب الأضداد ، وقيل : إن العرب تقول : رجل جعد إذا كان قصيراً متردد الخلق ، وإذا قالت : جعد السبوطة فإنها تريد بذلك المدح ، إلا أن يكون شعره قَطِطًا مفلفلا كشعر الزنج والنوبة ، فهو حينئذ ذم ، قال الراجز يمدح الشعر الجعد (٣) :

قد تيَّمتْنِي طَفْلَةٌ أُملُودُ بفاحمٍ زيَّنَه التجعيدُ

وقد يريدون بالجعد الرجل المجتمع بعضه ، إلى بعض ، والسبط الذي ليس بمجتمع ، وأنشدوا (٤) :

قالت سُلَيمى لا أُحِبُّ الجَعْدِيْن ولا السِّبَاطَ إنَّهُم مَنَاتِيْن

وفي صفة شعر رسول الله ﷺ : « ليس بالسَّبْطِ ولا بالجَعْدِ القَطِطِ » (٥) والمراد : ليس شعره منبسطاً مسترسلاً ولا قططا شديد الجعودة أي كان شعره وسطا بينهما ، وعن أنس بن مالك قال : « كان شعر رسول الله ﷺ رَجِلاً ليس بالسَّبِط ولا الجَعْدِ بين أُذُنَيهِ وعاتقه » (٦) .

وكانوا يسدلون الشعر أو يفرقونه ، وتفريق الشعر جعله فرقتين كل فرقة ذؤابة ، والسدل أن يسدلوه وراءهم ، ونعرف من صفة شعر رسول الله ﷺ أنه كان يسدل شعره

(٢) اللسان والتاج : سبط .
(٣) اللسان : جعد .
(٤) اللسان : جعد .
(٥) عمدة القارى ٢٢/٥١ واللسان : سبط .
(٦) عمدة القارى ٢٢/٥٣ .

ثم فرقه فرقتين كل فرقة ذؤابة ، وكان يضفره غدائر وهي الضفائر ، وإذا طال شعره جعله غدائر أربعاً ، وكان عليه السلام يكثر دهن رأسه ولحيته ، وكان يحب الترجل ، يرجل شعره بنفسه أو ترجله له عائشة (٧) . وترجيل الشعر تسريحه بالمشط ، وكثيراً ما تقوم المرأة بترجيل شعر زوجها (٨) ، ويفخر امرؤ القيس بأنه يذهب إلى صاحباته وقد رجل شعره وتزين (٩) :

ويا رُبَّ يـــومٍ قد أرُوحُ مُرَجَّـــلاً حَبِيبا إلى البِيضِ الكَوَاعبِ أملَسَا

ومن عنايتهم بالشعر دهنه ، تدهن النساء شعورهن وكذلك يفعل الرجال ، ويستعمل الموسرون أنواعاً من الدهون الجيدة مثل الزيت المطيّب بالعطور وبأنواع الطيب ، ويدهنون شعورهم ولحاهم في أيام الأفراح والأعيـــاد خاصة ، وفي المجتمعات العامة والزيارات والمواسم ، ويعد دهن الرأس من علامات الفرح والسرور ، وتركه من علامات الغم والحزن (١٠) ولذلك كانوا إذا أرادوا الأخذ بالثأر حرموا على أنفسهم غسل شعرهم ودهنه وترجيله حتى يدركوا بثأرهم ، ونعرف من سيرة امريء القيس حين جاءه خبر مقتل أبيه أقسم ألا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك بثأر أبيه ، وكذلك فعل كثير غيره من الشعراء (١١) .

وكانوا يتمدحون بدهن الشعر وترجيله دلالة الفتوة والرجولة والجمال ، إلا في الحرب فإنهم يتمدحون بالسَّهَكِ وتغير الرائحة من كثرة لبس الحديد ، وشعث الرأس من كثرة الحروب ، وبذلك يفخر عنترة ويعلم عبلة بأنه رجل حرب لا وقت له لغسل الرأس ودهنه وترجيله (١٢) :

عَجِبتْ عُبَيْلَـــةُ من فتىً متبَذِّلٍ عاري الأشاجِعِ شاحبٍ كالمُنْصُلِ
شَعْثِ المفـــارقِ مُنْهَجٍ سِربَالُهُ لم يَدَّهِـــنْ حَـــوْلاً ولم يترَجَّـــلِ

(٧) زاد المعاد ١/٤٥ .
(٨) عمدة القارى ٢٢/٦٠ باب ترجيل الحائض زوجها .
(٩) ديوان امريء القيس ص ١١٧ ورسائل الجاحظ ٢/٩٨ .
(١٠) مزامير ٢٣/٥ متى ٦/١٧ وقاموس الكتاب المقدس ١/٥٢٢ .
(١١) انظر فصل الثأر من كتاب الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ٢٧٦ وما بعدها .
(١٢) ديوان عنترة ص٢٥٣ ط دمشق .

وفي الإسلام كان رسول الله ﷺ يدهن رأسه ولحيتـــه ويُكثر القناع كأن ثوبه ثوب زيات (١٣) ، وكذلك كان يفعل الصحابة يطلون شعر رأسهم ولحيتهم بالدهن ليزيلوا شعث روءوسهم ولحـــاهم به (١٤) .

القـــــرون والضفـــائر :

ويسمون الضفيرة أو الخصلة من الشعر قَرْنَا ، وقد عرف المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر بذى القرنين لأنه كانت له ذؤابتان يضفرهما في قرني رأسه فيرسلهما ، وبه فسر ابن دريد قول امريء القيس (١٥) :

أشذَّ نَشَاصَ ذِي القَرْنَيْنِ حتى تولَّى عَـــارِضُ المَلِكِ الهُمَـــامِ

ويقال : للرجل قرنان أي ضفيرتان ، قال الأسدي (١٦) :

كذبتم وبيتِ الله لا تنكِحـــونها بني شابَ قَرْناها تُصَرُّ وتُحْلَبُ

أي : يا بني التي شاب قرناها . والقَرْن الذؤابة ، وخص بعضهم به ذؤابة المرأة وضفيرتها ، وليس كذلك ، وكما لقب ابن ماء السماء بذُي القرنين فكذلك لقب الاسكندر الرومي المذكور في التنزيل ، لأنه كانت له ضفيرتان ، وتسمى العرب الخصلة من الشعر والذؤابة القرن ، ومنه : الروم ذات القرون ، لطول ذوائبهم (١٧) .

وكان عرب الجاهلية ، يضفرون شعر أولادهم وبناتهم ضفائر تتدلى على جانبي الوجه ومؤخرة الرأس،أما الرجال فكان منهم من يضفر شعر رأسه ضفيرتين تتدليان على جانبي الوجه ، ومنهم من يضفره عدة ضفائر قد تبلغ سبعاً ، وعادة ضفر شعر الرأس سبع ضفائر عادة معروفة عند غير العرب أيضاً ، من ذلك شعر شمشون الجبار المشهور كان مضفورا سبع ضفائر(١٨) . وكانوا يضفرون شعر الأطفال ضفائر تتدلى على رأسه وناصيته ، وعدتها في الغالب سبع ضفائر ، وقد يعلقون حلياً على كل ضفيرة إمعاناً منهم في تدليل الطفل وتجميله،

(١٣) زاد المعاد ١٧٦/١ ط . بيروت ١٩٧٩م .

(١٤) السابق وارشاد الساري ١٦١/٢ .

(١٥) اللسان والتاج : قرن ، وديوان امريء القيس ص ١٦٦ وفيه : أصد نشاص .

(١٦) اللسان : قرن .

(١٧) اللسان والتاج : قرن .

(١٨) قاموس الكتاب المقدس ٦١٩/١ وجواد على ٦١٢/٤ .

ومتى كبر الطفل وبلغ سن الرشد أو شعر برجولته ضُفِرت له ذؤابتان وهما علامة الشباب والرجولة .

وقد كان الساميون يحتفلون بحلق الذوائب لأن الحلق معناه انتهاء مرحلة من الحياة ودخول الطفل مرحلة الرجولة ، وكانوا يرمون الذوائب أمام الأصنام (١٩) .

ويقال للضفيرة الذؤابة ، وهي الغديرة ، وكل عقيصة غديرة ، والغديرتان : الذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر ، وقيل : الغدائر للنساء وهي المضفورة ، والضفائر للرجال ، وفي صفة رسول الله ﷺ أنه قدم مكة وله أربع غدائر ، وهي الذوائب واحدتها غديرة (٢٠) . وجاءت الغدائر في شعر امريء القيس يصف شعر حبيبته (٢١) :

غدائرُه مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا تَضِلُّ المِدَارَى في مُثَنًّى ومُرْسَلِ

وفي شعر لبيد (٢٢) :

وما يَكُ من شيءٍ فقد رُعْتَ روعةً أبا مالكٍ تبيَضُّ منها الغدائرُ

وقدم ضمام بن ثعلبة من بني سعد على رسول الله ﷺ وكان جلداً أشعر ذا غديرتين ، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ : « إنْ يصدقْ ذو العَقِيصتين يدخل الجنة » (٢٣) .

والذؤابة : الناصية لنوسانها ، وقيل : الذؤابة منبت شعر الناصية من الرأس ، ويراد بها التي أحاطت بالدوارة من الشعر ، وفي حَديث ابن عباس : « فقامَ رسولُ الله ﷺ يُصَلِّي من الليل فقمتُ عن يَسَارِه ، قال : فأخذَ بذؤابتي فجعلني عن يمينه » (٢٤) .

والشعر عزيز عند العرب وجَزُّهُ من قِبَلِ العدو يعتبر إهانة بالغة ، وكانوا إذا أرادوا إذلال الأسير أو الشريف أو سيد القوم أهانوه بجزِّ ناصيته أي مقدم رأسه (٢٥) . وجاء في هذا المعنى قوله تعالى : (لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ) (٢٦) وقيل في معنى الآية : أي لنسودن وجهه .

---

(١٩) جواد على ٤/٦٢٤ - ٦٢٥ .

(٢٠) اللسان غدر .

(٢١) ديوانه ص ٤٤ ويروي : تضل العقاص .

(٢٢) ديوان لبيد ص ٦٦ .

(٢٣) مسند أحمد بن حنبل ١/٢٥٠ ، ٢٦٤ ، واللسان : غدر .

(٢٤) عمدة القارى ٢٢/٥٧ .

(٢٥) والناصاة : لغة في الناصية ، وهى لغة طىء ، والناصاة : قصاص الشعر في مقدم الرأس ، قال حريث بن عتاب الطائي : (اللسان : نصا)

لقد آذنت أهل اليمامة طيء بحرب كناصاة الحصان المشهر

(٢٦) سورة العلق ١٥ .

واشتقوا من الناصية معنى العزة والشرف ، يقال للرؤساء نواصي ، كما يقال للأتباع أذناب ، ونصيّة القوم خيارهم ، وفي الحديث : أن وفد همدان قدموا على النبي ﷺ فقالوا : « نحن نَصِيَّةٌ من هَمْدان » (٢٧) ، قال الفراء : الأنصاء السابقون ، والنصية الخيار الأشراف ، ونواصي القوم مجمع أشرافهم ، وأما السفلة فهم الأذناب ، قالت أم قبيس الضبية (٢٨) :

ومَشْهَدٍ قد كَفَيْتُ الغَائِبينَ بِـه ... في مجمعٍ من نَواصي الناس مَشْهُودِ

ونصيت الشعر : سرحته ومشطته ، ونصت الماشطة المرأة ونصّتْها فتنصّت ، وفي الحديث : « ان أُم سلمة تسلبتْ على حمزة ثلاثة أيام فدعاها رسول الله ﷺ وأمرها أن تَنَصَّى وتَكْتَحِلَ » ، قال : قوله أمرها أن تنصّى أي : تسرح شعرها أراد تتنصّى فحذف التاء تخفيفاً ، يقال : تنصّت المرأة إذا رجّلت شعرها (٢٩) .

وكانوا يلبدون شعرهم بالخطمى والصمغ إذا خافوا أن يقملوا ، وعرف من يفعل ذلك (المُلَبِّد) ، والملبد المحرم الذي لبد شعره حتى لا يقمل إذا دخله الغبار والعرق (٣٠) ، والتلبيد : أن يأخذ شيئاً من خطمى وآس وسدر وشيئاً من صمغ فيجعله في أُصول شعره وعل رأسه كي يتلبد ولا يعرق ويدخله الغبار فيخمّ ويقمل ، وكانوا في الجاهلية يفعلون ذلك في الحج إذا لم يريدوا أن يحلقوا (٣١) .

وكانوا يعتنون عناية كبيرة بتنظيف شعورهم وغسلها ، وقد عرفوا أصنافاً من وسائل التنظيف ، منها (الحُرُضُ) (٣٢) من نجيل السباخ وهو من الحمض ، وقيل هو الأُشْنَان تغسل به الأيدي على أثر الطعام ، وشجرته ضخمة ولها حطب وهو الذي تغسل به الثياب(٣٣) . و (القَصِيصة) شجرة تنبت في أصلها الكمأة والجمع قصائص وقصيص ، ذكرها الأعشى في قوله (٣٤) :

---

(٢٧) اللسان : نصا .
(٢٨) السابق .
(٢٩) اللسان : نصا .
(٣٠) المعاني الكبير ٤٢٦/١ والتاج : لبد .
(٣١) الحيوان ٣٧٧/٥ واللسان : لبد .
(٣٢) حكاه سيبوية : (الحرض) بالاسكان ، والأشنان : بضم الهمزة وكسرها .
(٣٣) اللسان : حرض .
(٣٤) ديوان الأعشى ص ٩٩ واللسان والتاج : قصص .

فقلتُ ولم أملِكْ أبَكْـرَ بنَ وائـلٍ متى كنتُ فَقْعاً نابتا بقَصَـائِصَـا

وفي شعر عـدي بن زيـد (٣٥) :

يجـني لـه الكمـأةَ ربعيَّـةً بالخَبْءِ تنـدَى في أُصـولِ القَصِيص

ويستعملون القصيص غسلا للرأس كالأشنان .

وأكثر ما يغسلون رؤوسهم بالخَطْميِّ (٣٦) ، وهو ضرب من النبات يغسل به الرأس ، وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ « كان يغسل رأسه بالخَطْميِّ وهو جُنُبٌ يجتَزيْ بذلك ولا يصُبُّ عليه الماء » (٣٧) ، أي أنه كان يكتفي بالماء الذي يغسل به الخطمى وينوي به غُسْلَ الجَنابةِ ولا يستعمل بعده ماء آخر يخص به الغسل .

تصفيفـات شعر النسـاء :

الذي يزور متاحف التاريخ القديم في العراق ، في بابل ونينوى(٣٨) ، وفي سورية في تدمر ، والمتحف الفرعوني في مصر (٣٩) ويشاهد التماثيل اليونانية والرومانية ، يجد أنواعاً كثيرة من تصفيفات الشعر تشبه إلى حد كبير تصفيفات الشعر لدى النساء المعاصرات ، ومنها التصفيفات الطويلة والجدائل وتسريح الشعر ورميه على الكتفين ، أو عقصه على الجانبين ، أو لَيِّه إلى أعلا ، ومنها التسريحات القصيرة التي تحيط بجانبي الوجه ، أو التي يتجعد فيها الشعر ويرتفع عن الرقبة ، وهكذا (٤٠) . ومن يتفحص هذه التصفيفات يجدها تتطابق مع مع أوصاف تصفيفات الشعر لدى المرأة في العصر الجاهلي والإسلامي ، كما وصفها الشعراء .

ومن التسريحات البسيطة والشائعة هي ضفر الشعر ضفيرتين أو أكثر ، ووردت للضفائر

---

(٣٥) اللسان والتاج : قصص .

(٣٦) بكسر الخاء وقيل بفتحها ، وقال الأزهري : بفتح الخاء ومن قال (خطمي) بكسر الخاء فقد لحن . (اللسان : خطم) .

(٣٧) مسند ابي داود : طهارة ١٠٠ ، واللسان : خطم .

(٣٨) انظر على سبيل المثال : المتحف العراقي القاعة السومرية خزانة ١٨ ، ١٩ والقاعة البابلية خزانة ٧ ، وقاعة الحضر ١٣ .

(٣٩) انظر كتاب : H . Ranke : The Art of Ancient Egypt , figs . 152/163 . Vienna 1936 .

(٤٠) انظر تفصيلات الموضوع في كتاب : R . Corson : Fashions in Hair PP . 63 , 64 , 65 , 82 . London .

مسميات عدة ، منها الذوائب والغدائر والقرون كما مر(٤١) ، أما (العِقَاص) فتصفيفة أُخرى جاءت في الشعر الجاهلي وذكرها امروء القيس في وصفه كثرة شعر حبيبته والتفافه في قوله (٤٢) :

غدائِرُه مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُــلا تَضِلُّ العِقَاصُ في مُثَنَّى ومُرْسَلِ

والمراد بالعقاص عقص الشعر وهو أن تلوي المرأة الخصلة من الشعر ثم تعقدها ثم ترسلها والعقيصة الشعر المعقوص ، وهو نحو من المضفور ، وأصل العقص اللَّي وإدخال أطراف الشعر في أُصوله ، قال الليث : العقص أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ، فكل خصلة عقيصة ، وربما اتخذت المرأة عقيصة من شعر غيرها (٤٣) ، وفي حديث حاطب أن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد فقال : « ائتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه » فلما ضفروا بالمرأة « أخرجت الكتاب من عِقَاصها » (٤٤) ، وقد يعقص الرجال شعورهم ، وفي صفة رسول الله ﷺ : « إنْ انفرقتْ عَقِيصتُه فَرَق وإلا تركها » (٤٥) ، وغلب اسم ذي العقيصتين على رجل خصّل شعره عقيصتين وأرخاهما من جانبيه ، وفي حديث ضِمَام : « إنْ يصدق ذو العَقِيصتين يدخل الجنة » (٤٦) .

وصــل الشــعر :

وقد تتخذ المرأة خيوطاً تفتل من صوف مصبوغة بالسواد تصل بها شعرها وتسمى (العُقُوص) (٤٧) ، ومن معنى العقوص جاءت كلمة (القَرَامِل) أو القراميل ، وهي

(٤١) انظر ما سبق ص ١٠٢ وما بعدها .

(٤٢) ديوان امريء القيس ص ٤٤ . والمعنى ان ذوائبها وغدائرها مرفوعات أو مرتفعات إلى فوق ، يراد به شدها على الرأس بخيوط ، ثم قال : تغيب تعاقيصها في شعر بعضه مثني وبعضه مرسل ، أى أن شعرها وافر كثيف ، والتعقيص التجعيد .

(٤٣) وقال أبو عبيد : العقص : ضرب من الضفر وهو أن يلوي الشعر على الرأس ولهذا تقول النساء : لها عقصة وجمعها عقص وعقاص وعقائص ، ويقال ، هي التي تتخذ من شعرها مثل الرمانة . (اللسان : عقص) .

(٤٤) الحديث في صحيح مسلم ٥/ ٣٦٤ بشرح النووي ، والمرأة من المشركين ارسلها حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش وكان حليفا لهم يخبرهم بأمر الرسول بعد بدر ليتخذ عندهم يدا . وخاخ ، بخائين : موضع بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلا من المدينة .

(٤٥) اللسان : عقص .

(٤٦) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٢٥٠ ، ٢٦٤ واللسان : عقص .

(٤٧) اللسان عقص .

ما تصل به المرأة شعرها من صوف أو شعر ، أو ما تشده المرأة في شعرها من صوف أو شعر ، ويراد به الشعر المستعار ، قال الراجز(٤٨) :

تَخالُ فيهِ القُنَّةَ القنُونا
أو قَرْمَلِيًّا مانِعًا دَفُونا

وقيل إن رسول الله ﷺ رخص في القرامل وهي ضفائر من شعر أو صوف أو إبريسم تصل به المرأة شعرها (٤٩) . وكان وصل الشعر في الجاهلية شائعاً ، فلما جاء الإسلام حرَّم ذلك لما فيه من زور ، ففي الحديث : أن جارية من الأنصار تزوجت ثم مرضت فتمعَّط شعرها فأرادوا أن يصلوها فسألوا النبي ﷺ في ذلك فقال : (لعنَ اللهُ الواصِلَةَ والمُسْتَوصِلَةَ) (٥٠) .

والواصلة من النساء : التي تصل شعرها بشعر غيرها ، والمستوصلة الطالبة لذلك وهي التي يفعل بها ذلك ، وقد رخَّص الفقهاء ، في وصل الشعر بغير الشعر أي بالقرامل وهي الخيوط من صوف أو إبريسم، روي عن سعيد بن جبير أنه قالى : « لا بأس للوصول بالقرامل » (٥١) ، فلا يلتبس عندئذ أنها مستعارة ولا يظن بها تغيير الصورة ، وقد روي عن عائشة أُم المؤمنين أنها بينت معنى آخر للوصل ، وأجازت الوصل بالقرامل فقالت : « ليست الواصلة بالتي تعنون ، ولا بَأسٌ أن تَعْرَى المرأةُ عن الشعر فتصل قرنا من قرونها بصوف أسود ،وإنما الواصلة التي تكون بَغِيًّا في شَبِيبَتِها فإذا أسَنَّتْ وصلتها بالقيادة»(٥٢) وفي ما روي عن عائشة تأكيد بتحريم وصل الشعر ، لأنها ذكرت وصل الشعر بصوف أسود ، وليس وصل الشعر بالشعر .

---

(٤٨) اللسان : قرمل .

(٤٩) التلخيص في معرفة الأشياء ٢٣/١ واللسان : قرمل .

(٥٠) عمدة القارى ٦٤/٢٢ - ٦٥ وصحيح مسلم ٨٣٣/٤ - ٨٣٩ كتاب اللباس والزينة ، وفيه : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : (يا رسول الله ان لي ابنة عريسا أصابتها حصبة فتمرق شعرها أفأصله ، فقال : لعن الله الواصلة والمستوصلة) .

(٥١) ارشاد الساري ٥٦٦/٨ .

(٥٢) عيون الأخبار ١٠٢/٤ ، قال ابن الأثير : قال أحمد بن حنبل لما ذكر ذلك له : ما سمعت بأعجب من ذلك . وانظر اللسان : قرمل .

ويبدو أن اليهود كانوا يستعملون الشعر المستعار ، ففي رواية عن حُمَيْد بن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حَجَّ وهو على المنبر وتناول قُصَّة من شَعَر كانت في يد حَرَسِيٍّ ، يقول : « يا أهل المدينة ، أين علماؤكم سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ، يقول : (إنما هلكتْ بنو إسرائيل حين اتخَذَ هذه نساؤهم) »(٥٣) .

وقد سمى الشعر المستعار « الزُّور » ، ففي رواية أُخرى في الحديث السابق عن سعيد بن المسيب قال : « قدم معاوية المدينة فخطبنا وأخرج كُبَّةً من شَعَر فقال : ما كنت أرى أن أحداً يفعله إلا اليهود ، وأن رسول الله ﷺ بلغه فسماه الزُّورَ » (٥٤) .

وعلى الرغم من نهي رسول الله ﷺ عن الشعر المستعار ، فإن بعض النساء كن يتعاطينه وخاصة في العصر الأموي ، ففي الأغاني أن « جميلة » المغنية كانت تضع على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن(٥٥) . وأن جميلة نفسها كانت تلبس « وَفْرَة » مثل الوفرة التي كان يلبسها ابن سُرَيْج . ومعنى هذا أن بعض الرجال كانوا يتعاطون ما تتعاطاه النساء من لبس الوفرة أو الشعر المستعار(٥٦) .

أوصـــاف شعر الرجـــال :

وترد أوصاف شعر الرأس لدى الرجال من حيث غزارته وتصفيفاته وأشكاله في صور متعددة ، من ذلك :

(الوَفْرَة) الشعر المجتمع على الرأس ، وقيل ما سال على الأذنين من الشعر ، والجمع وِفَار ، قال كُثَيِّر : (٥٧)

---

(٥٣) صحيح مسلم ٨٣٩/٤ كتاب الزينة .

(٥٤) عمدة القارى ٦٥/٢٢ وصحيح مسلم ٨٣٩/٤ ـ ٨٤٠ قيل وجاء رجل بعصا على رأسها خرقة ، قال معاوية : ألا وهذا الزور ، قال قتادة : يعني ما يكثر به النساء أشعارهن من الخرق .

(٥٥) الأغاني ١٤٤/٧ .

(٥٦) المصدر السابق ، وان كانت جميلة وابن سريج لا يمثلان العصر لأنهما من (أهل الفن) وأهل الفن حتى في هذا الزمان طراز لا يقاس عليه فقد يتلاعبون في شعورهم ، وملبسهم فيتشبه الرجال منهم بالنساء والنساء بالرجال ، ويقلدهم بعض الأشباه من هؤلاء وهؤلاء ، وقد لعن الرسول ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال . (انظر البخاري : لباس ٦١ ، ٦٢ وعمدة القارى ٤١/٢٢ .

(٥٧) اللسان : وفر ، وديوان كثير عزة ص ٢٥٦ .

كأنَ وِفَـارَ القَوْمِ تحتَ رِحالِهـا إذا حُسِرَتْ عنها العمـائِمُ عُنْصُلُ

وقيل : الوفرة أعظم من الجُمَّـة ، وقد خالف ابن سيدة في ذلك فقال : إنما هي وفرة ثم جمة ثم لِمَّة . والوفرة : ما جاوز شحمة الأذنين ، واللِّمَّة : ما ألمَّ بالمنكبين (٥٨) وقد ترد الوفرة بمعنى الجمة ، ففي التهذيب « وفر » : والوفرة ، الجمة من الشعر إذا بلغت الأذنين ، وقد وفرها صاحبها . وقيل : الوفرة الشعرة إلى شحمة الأذنين ثم الجمة ثم اللمة . وفي حديث أبي رمثة : « انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ فإذا هو ذو وَفْرَة فيها رَدْعٌ من حِنَّاء » (٥٩) .

« الجُمَّـةُ » : والجمة مجتمع شعر الرأس وهي أكثر من الوفرة ، وفي الحديث : « كان لرسول الله ﷺ جُمَّةٌ جَعْدَةٌ » (٦٠) ، وقيل : الجمة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين ، والجمة خاصة بالرجال وتُذَمُّ المرأة أن تشبه بالرجال في جعل شعرها جمة ، وفي الحديث : « لعنَ اللهُ المُجَمِّماتِ من النساء » وهن اللواتي يتخذن شعورهن جمة تشبُّهاً بالرجال (٦١) .

« اللِّمَّةُ » واللمة من شعر الرأس دون الجمة ، سميت بذلك لأنها ألمت بالمنكبين ، فإذا زادت فهي الجمة ، وفي الصحاح : شعر الرأس يجاوز شحمة الأذن ، فإذا بلغت المنكبين فهي جمة ، وجمعها لمم ولمـام ، قال ابن مفرغ (٦٢) :

شَدَخَتْ غُـرَّةَ السَّوابقِ منهـم في وجُـوهٍ مع اللِّمَـامِ الجِعَادِ

وفي الحديث : « ما رأيت من ذي لِمَّةٍ أحسن في حُلَّةٍ حمراءَ من رسول الله ﷺ ، شَعْره يضرب منكبيـه » (٦٣) ، وكانوا يفخـرون أن تكون لمتهم جعدة ، فهذا دَوْسَر ابن ذُهَيل القُرَيعي يفخر بأنه كان في صباه يردُّ خصلات شعره الجعدة خلف أُذنيه (٦٤):

---

(٥٨) اللسان : وفر .

(٥٩) مسند ابن حنبل ٢/٢٢٦ ، ٢٢٧ واللسان : وفر .

(٦٠) انظر في صفة شعر النبي ﷺ صحيح مسلم ٥/١٨٨ - ١٨٩ كتاب الفضائل ، صفة شعره ﷺ .

(٦١) اللسان : جمم .

(٦٢) اللسان : لمم ، وديوان ابن مفرغ الحميري ص ٦٨ .

(٦٣) صحيح مسلم ٥/١٨٨ كتاب الفضائل ، صفة شعره ﷺ . واللسان : لمم .

(٦٤) الأصمعيات ص ١٥٠ .

وإنْ يَكُ شيبٌ قد عــلاني فَرُبَّما أَرانِيَ في رَيْعِ الشَّبابِ مع المُرْدِ

طَويلُ يَدِ السِّرْبَالِ أغْيَدُ للصِّبَا أكفُّ على ذِفْرَايَ ذا خُصَلٍ جَعْدِ

وإذا دهــن الشعر فهو ملمَّم وململم قال : (٦٥)

وما التَّصابي للعُيــونِ الحُــلَّمِ بعـدَ ابْيِضَاضِ الشَّعَرِ المُلَمْلَمِ

وإذا جاء العصر الأموي ثم العباسي خاصة نجد تصفيفات كثيرة وتزييناً للشعر لم يعهده العصر الجــاهلي أو صدر الإسلام (٦٦) .

أما الأدوات المستعملة في زينة الشعر فأبرزها « المُشْط » ويرد المشط في الشعر الجاهلي باسم « المِدْرَى » ، وكان يصنع من الخشب أو العاج أو الصندل وقد يتخذ المشط من ذهب أو فضة أو من معدن آخر ، وورد في الشعر قول سعيد بن عبد الرحمن بن حسان : (٦٧)

قد كنت أُغــني ذى غِنىً عنكم كما أغْنَى الرجالِ عن المِشَاطِ الأقْرَعُ

ومن أسماء المشط : المِكَدُّ ، والمِرْجَلُ ، والمِسْرَحُ ، والمِشْقَا ، بالقصر والمد ، والنَّحِيتُ ، والمُفَرَّجُ . وفي حديث سِحْر النبي ﷺ : « أنه طُبَّ وجُعل في مُشْط ومُشَاطةٍ » (٦٨) والمُشاطة : الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط . وجاء ذكر المشط في الحديث النبوي في صفة أهل الجنة : « آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوة . . . » (٦٩) .

وقد جاء في الشعر باسم « المِدْرَى » في قول المُخَبَّل السعدي : (٧٠)

وتُضِــلُّ مِدْرَاها المَوَاشِطُ في جَعْــدٍ أغَــمَّ كأنَّــهُ كَرَمُ

---

(٦٥) اللسان : لمم ، العيون هنا : سادة القوم ، ولذلك قال : الحلم ولم يقل الحالمة .

(٦٦) ينظر في هذا : التزيق والحلى عند المرأة في العصر العباسي ، فصل تصفيفات الشعر ص ٣٧ ـ ٥٨ .

(٦٧) اللسان : مشط ، في المشط ثلاث لغات ، ضم الميم وفتحها وكسرها والجمع أمشاط ومشاط . وقيل : فيه لغة رابعة وهى (المشط) بتشديد الطاء ، وانشد :

ان الغنى عن المشط الأقرع

(٦٨) عمدة القارى ٢١/٢٨٠ واللسان : مشط .

(٦٩) عمدة القارى ١٥/١٥٤ .

(٧٠) المفضليات ص ١١٦ .

والاستعمال نفسه في شعر امرئ القيس : « تُضِلُّ المدارَى في مُثَنَّى ومُرْسَلِ » (٧١) وبالمدرى تسرح المرأة شعرها وتفرقه أيضاً ، يقول الحطيئة : (٧٢)

تُفَرِّقُ بالمِدْرَى أَثِيْثًا نَبَاتُه على واضِحِ الذِّفْرَى أسيلِ المَقَلَّدِ

وورد المدرى باسم « الخلال » في شعر الأعشى : (٧٣)

حُرَّةٌ طَفْلَةُ الأنامِلِ تَرْتَبُّ سُخَامًا تَكُفُّهُ بخِلالِ

وكانت النساء تستعمل « المِخْيَطَ » في تفريق الشعر ، ولابد أنه كان من معدن أو عاج ، وفي المتاحف الإسلامية نماذج كثيرة وخاصة المتحف العراقي ، بعضها مثقوب الرأس وبعضها خال من الثقب ، وقد جاء ذكر المخيط في العصر الإسلامي في قول بثينة عند وفاة جميل : « فلم أكتحل بعده بإثْمِدٍ ولا فرقت رأسي بمِخْيَط ولا مُشْط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصري » (٧٤) . وقد مر بنا في الشَعَر المستعار استعمال القَرَامِل وخيوط الصوف والابريسم .

صورة الشَّعَر في الشِّعْر الجاهلي :

إن الشِّعْر الذي وصف شَعْر المرأة كان يصور الذوق العام ونظرة العرب إلى الشعر الذي يحبونه ، ويعكس أيضاً صفات الشعر وألوانه وضروب زينته .

إن لون شعر المرأة العربية هو الأسود الذي ينسجم ولون العينين السوداوين ، ووصف بأنه طويل يُناسب القوام الفارع والجيد الطويل ، ولا نعرف شاعراً وصف لون شعر حبيبته بغير السواد ، والسواد الفاحم الناصع الذي لا يشوبه لون آخر ، يقول امروٌ القيس إن شعر حبيبته طويل يزين متنها ولونه أسود فاحم وهو أثيث وافر : (٧٥)

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ أثِيْثٍ كقِنْوِ النَّخلةِ المُتَعَثْكِلِ

(٧١) ديوان امريء القيس ص ٤٤ .
(٧٢) ديوان الحطيئة ص ٤٦ .
(٧٣) ديوان الأعشى ص ١٦٤ .
(٧٤) الأغاني ١٣٢/٧ .
(٧٥) ديوان امريء القيس ص ٤٤ .

وكذلك يؤكد المرقش الأصغر على طول شعرها الأسود الفاحم :(٧٦)

ألا حَبَّذا وَجْهٌ تُرينا بياضَهُ ومُنْسَدِلات كالمَثاني فَوَاحِمَا

وقد افتن عنترة في وصف جمال شعر حبيبته ، وقد قرن بين غرتها البيضاء وسواد شعرها الذي يشبه دجى الليل :(٧٧)

ويطلع ضوءُ الصبح تحتَ جبينها فيغشاهُ ليلٌ من دُجَى شَعْرِها الجَعْدِ

وتلح عليه صورة الليل الداجي الذي استمد ظلامه من شعرها فيقول : إن الليل سرق سواده من شعرها فازداد حلكة : (٧٨)

خطفَ الظلامُ كسارق من شَعْرِها فكأنَّما قَرَنَ الدُّجَى بدَيَاجِي

ويجعل المزرد بن ضرار شعرها أسحمَ شديد السواد طريًّا : (وأسحمَ ريَّانِ القُرونِ) (٧٩) ويلاحظ سُحَيْم بأن المرأة ذات الشعر الجميل الأسود الطويل الفاحم تزهو به وتتباهى وتحب أن يراه الناس كذلك : (٨٠)

وما دُمْيَةٌ من دُمَى مَيْسَنَا نَ مُعْجِبَةٌ نظراً واتِّصَافَا

بأحسنَ منها غَداةَ الرَّحيـ ـلِ قامت تُرَائِيكَ وَحْفَاً غُدَافَا

ويصف الأعشى وجه صاحبته الأبيض المشرق كشعاع الشمس وشعرها المنسدل المسترسل ذى الغدائر السود على عنق أبيض كالفضة :(٨١)

ووَجْهاً كالفتاقِ ومُسْبَكِرًّا على مِثْلِ اللُّجَيْنِ وهَنَّ سُودُ

وتَبْسِمُ عن مَهاً شَبِمٍ غَرِيٍّ إذا يُعْطَى المُقَبِّلَ يستزيدُ

ويصف شعرها كذلك بأنه (سُخَام) لشدة سواده ، وإنها تمشطه بخلال وهو المشط :(٨٢)

---

(٧٦) المفضليات ص ٢٤٥ .

(٧٧) ديوان عنترة ص ٧٢ ط . شلبي .

(٧٨) ديوانه ص ٣٩ .

(٧٩) المفضليات ص ٩٤ .

(٨٠) ديوان سحيم ص ٤٣ . وميسنان : موضع بالشام .

(٨١) ديوان الأعشى ص ٦٢ ، الفتاق : قرن الشمس ، المسبكر : المسترسل ، هن سود : الغدائر .

(٨٢) ديوانه ص ١٦٤ .

حُـــرَّةٌ طَفْـــلَةُ الأنامـــلِ تَرْتَـــبٌ سُخَاما تَكُفُّـــهُ بخِـــلالِ

والشعر طويل دائماً ، ولا نجد ذكراً للشعر القصير إلا في العصور العباسية ، وطول الشعر يناسب طول القوام ويشير إليه ، فالمثقب العبدي يصفه بأن خصله وضفائره طويلة مسترسلة(٨٣)

وهُـــنَّ على الظِّـــلاَمِ مُطَنَّبَـــاتٌ طويـــلاتُ الذوائبِ والقُـــرونِ

ويجعله المرقش الأصغر طويلاً كالحبال : (ومُنْسَدِلاتٍ كالمثَاني فَواحِما) (٨٤) ويستعمل لفظة (وارد) ليؤكد طوله وجماله : (تَراءتْ لنا يومَ الرحيلِ بوَارِدٍ) (٨٥) وكذلك يقرن طرفة بن العبد طول الشعر بحسنه وكثافته واسترساله : (٨٦)

وعـــلى المَتْنَـــينِ منهـــا وَارِدٌ حَسَنُ النَبْتِ أثيثٌ مُسْبَكِـــرّ

ويشبه النابغة شعر حبيبته الغزير المسرح بعناقيد العنب المسندة على الدعائم : (٨٧)

وبفَـــاحِمٍ رَجْلٍ أثِيثٍ نبتُـــــه كالكَرْمِ مالَ على الدِّعامِ المُسْنَدِ

وتتكرر هذه الصورة – صورة تشبيه الشعر بالكرم – عند المخبل السعدي : (جَعْدٌ أغَمُّ كأنه كَرْمُ) (٨٨) وعند ربيعة بن مقروم الذي يصوره بصورة العناقيد المنسدلة على متنيها : (٨٩)

قامتْ تُريكَ غَداةَ البَيْنِ مُنْسَدِلاً تخَـــالُه فـــوقَ متنَيْها العنَاقِيدا

وإذا كانت أكثر أوصاف الشعراء تجعل الشَعْر طويلاً مسترسلا سبطا ، فإن تشبيهه بعناقيد الكرم لابد أن يلاحظ فيه التجعد ، وقد وصف الشعراء الشَعْر بالجعودة أيضاً ، وقد مر بنا قول المخبَّل السعدي الذي شبه شعر حبيبته بالكرم وأنه جعد : (٩٠)

وتُضِلُّ مِدْرَاهـــا المَوَاشِـــطُ في جَعْـــدٍ أغَـــمَّ كأنَّهُ كَـــرْمُ

---

(٨٣) المفضليات ص ٢٨٩ الظلام : بكسر الظاء بمعنى الظلم ، أي نحن مع ظلمهن ايانا نطلبهن .
(٨٤) المضليات ص ٢٤٥ .
(٨٥) المفضليات ص ٢٤٤ .
(٨٦) ديوانه ص ٥٤ .
(٨٧) ديوانه ص ٤١ .
(٨٨) المفضليات ص ١١٦ .
(٨٩) المفضليات ص ٢١٣ .
(٩٠) المفضليات ص ١١٦ .

وكذلك يجعله عنترة متموجاً جعداً : (من دُجَى شَعْرها الجَعْدِ) (٩١) .

وما دام الشعر غزيراً كثيراً واردا فإن المشط وهو صغير يضيع في ثنايا الشعر عند تسريحه كما رأينا في بيت المخبل السابق (وتضل مدراها المواشط) ، وأصل هذه الصورة من امرئ القيس في بيته المشهور :(٩٢)

غدائرُه مُسْتَشزِراتٌ إلى العُلا تَضِلُّ المَدارَىفي مُثَنَّى ومُرْسَلِ

وهو في كل الأحوال أثيث وافر ركام (قامتْ تُرِيكَ أثِيثاً رُكَاما) (٩٣) . ولعل المرَّار بن منقذ – وهو إسلامي – خير من وقف عند شعر حبيبته ووصفه بالوفرة ، والطول والاسترسال ، وإن المدراة تغوص فيه عند الترجيل وتضيع بين ذوائبه ، وهو لطوله يكاد يمس الأرض إذا أرسلته فيصيبه عفار الأرض،وهو مع طوله جعد يملأ الرأس ،تفرقه ضفائر وذؤابات : (٩٤)

وهَـوَى القلبِ الذي أعجبَـهُ صُورةٌ أَحْسَنُ مَنْ لاثَ الخُمُرْ
راقَـهُ منهـا بيـاضٌ ناصِعٌ يُؤْنِـقُ العَـيْنَ وضَافٍ مُسْبَكِرّ
تَهْلِكُ المِدْرَاةُ في أَفْنَـائِه فـإذا مـا أُرْسَـلتْهُ يَنْعَفِـرْ
جَعْـدَةٌ فَرْعَـاءُ في جُمْجُمَةٍ ضَخْمَـةٍ تَفْـرُقُ عنها كالضُّفُرْ
شَـادِخٌ غُرَّتُهـا من نِسْـوةٍ كُـنَّ يَفْضُلْنَ نِسَاءَ النَّاسِ غُرّ

وللمرار صورة أُخرى جميلة للشعر مستمدة من النخيل ، فهو يشبه سعف النخيل المتشابك في حركته وتجاوره بشعر الفتيات اللواتي يتجاذبن بالضفائر ، أمسكت كل واحدة منهن بخصلات وضفائر الأخرى تجذبها : (٩٥)

كأنَّ فُروعَهـا في كل رِيْـحٍ جَـوارٍ بالذّوائِـبِ يَنْتَصِينَـا

---

(٩١) ديوان عنترة ص ٧٢ ط . شلبي .
(٩٢) ديوان امرىء القيس ص ٤٤ .
(٩٣) ديوان قيس بن الخطيم ص ٢١٣ .
(٩٤) المفضليات ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(٩٥) المفضليات ص ٧٣ ، ينتصين : من المناصاة وهى المجاذبة بشعر الناصية ، وتناصى الرجلان : أخذ كل منهما بناصية صاحبه .

ويستخدم الحطيئة لفظ (أثيث) ليعبر بها عن كثافة شعر المرأة وغزارته حيث تفرقه بالمشط على جيد واضح طويل : (٩٦)

تُفَرِّقُ بالمِدْرَى أثِيثًا نَبَاتُهُ ... على واضِحِ الذِّفْرَى أسِيلِ المُقَلَّدِ

وقد لاحظوا طول الضفائر وأنها غليظة مجدولة لينة فتخايلت في أذهانهم صورة الحيات الطويلة اللينة الملساء ، يقول المنخل اليشكري : (٩٧)

يعكُفْنَ مثلَ أساودِ التَّنُّومِ لم تُعْكَفْ لِزُورِ

ويجعل المزرد بن ضرار ضفائرها السود اللينة التي طرّاها الطيب كأنها حيات موضع رَمّان الطويلة اللينة : (٩٨)

وأسْحَمَ رَيَّانِ القُرُونِ كأنَّهُ ... أساودُ رَمَّانِ السِّبَاطِ الأطَاوِلُ

وهذا الشعر الأسود الطويل اللين لابد أن يكون مدهوناً بالزيت حتى يكتسب الطراوة واللمعان ، ومطيباً بالطيب تفوح منه ريح المسك القوية الساطعة ، يقول سويد بن أبي كاهل : (٩٩)

وقُرونًا سَابِغًا أطرافُها ... غَلَّلَتْهَا رِيحُ مِسْكٍ ذي فَنَعْ

---

(٩٦) ديوان الحطيئة ص ٤٦ .

(٩٧) الاصمعيات ص ٦٠ ، لم تعكف لزور : أي عفيفات لا يتزين لريبة .

(٩٨) المفضليات ص ٩٤ .

(٩٩) المفضليات ص ١٩١ .

حـــلق الشـــعر :

قص الشعر قديم ، ومرتبط بالنظافة والزينة ولذلك كان إبراهيم الخليل أول من استنَّ هذه السنة فقيل : « أول من قص شاربه وفرق شعره وتمضمض واستاك وقلّم الأظفار واستنجى فصار سنة في الإسلام ، إبراهيم عليه السلام »(١) ، وكان الرجال يحلقون شعورهم في الحرب أو الحج ، أما النساء فلا يحلقن شعورهن إلا لمصيبة كبيرة ونازلة عظيمة كموت الزوج أو شخص عزيز يستحق التضحية بالشعر ، والشعر غال عزيز على المرأة ، تحلق شعرها عند المصاب العظيم وتحثو التراب أو الرماد على رأسها تعبيراً عن حزنها وشدة جزعها ، وتعرف هذه المرأة بـــ (الحالقة) ، وقد نهى الإسلام عن الحلق بل لعن الرسول الحالقة : « إن رسولَ الله بريءٌ من الصَّالِقة والحَالِقَة والشَّاقَّة » (٢) ، وكانت المرأة في المصائب تحلق شعرها وتتخذ نعلين تضرب بهما رأسها أو وجهها ، وإلى ذلك تشير الخنساء : (٣)

فـــلا وأبيكَ ما سَلَّيْتُ نفســـي ... بفَاحِشَـــةٍ أتَيْـــتُ ولا عُقُـــوقِ

ولـــكنِّي رأيتُ الصَّـــبْرَ خَـــيرا ... من النَّعـــلينِ والرَّأسِ الحَـــــليقِ

وقول الآخـــر يصف نساء قومه وما أصابهن عند قتل رجال القبيلة من بني سلامان بن غـــنم : (٤)

ألا قَوْمِي أُولُو عَقْرِي وحَلْقِي ... لِمـــا لاقَتْ سَلامَانُ بنُ غَـــنْمِ

وكثيراً ما يذكر خمش الوجه مع حلق الشعر عند المصيبة ، يقول سلامة بن جندل : (٥)

وأُمٌّ بُجَـــيْرٍ في تَمَارُسِ بَيْنِنـــا ... متَى تَأتِها الأنْبَاءُ تَخْمِشْ وتَحْلِقِ

وقد أوصى لبيـــد ابنتيه في الإسلام حين حضرته الوفاة أن تجتنبا هذه العادة الجاهلية اتباعاً لآداب الإسلام : (٦)

---

(١) لطائف المعارف ص ٦ .

(٢) البخاري : جنائز ٣٨ وعمدة القارى ٩٢/٨ واللسان والتاج : حلق .

(٣) ديوان الخنساء ص ١٣٤ واللسان : حلق .

(٤) اللسان : حلق .

(٥) الأصمعيات ص ١٣٥ ، التمارس : الممارسة والقتال .

(٦) ديوان لبيد ص ٧٩ .

فَقُوما فقُولا بالذي قد عَلِمْتُمَـا ولا تَخْمِشَا وَجْهاً ولا تَحْلِقَا شَعَرْ

ويضرب بالحالقة المثل في الشؤم ، وفي الحديث : « دَبَّ إليكم دَاءُ الأُمَمِ البغضاءُ والحَالِقَةُ » (٧) .

وقد تحلق النساء شعورهن في الحرب تحريضاً للرجال على الصبر في القتال والاستماتة في الحرب ، وقد سمي يوم من أيام العرب كان لتغلب على بكر بيوم « تَحْلاَقِ اللِّمَمِ » سمي بذلك لأن شعارهم فيه كان الحـــلق (٨) .

أما الرجال فكانوا يحلقون رؤوسهم في الحج أو عند التزين ، يحلقون أنفسهم بأيديهم أو يحلق لهم حلاق ، وكثيراً ما يكون الحلاق حجاما أيضاً . ويستعمل الحلاق المقص والموسى في الحلاقة ، ومن أدواته المرآة وأدوات الزينة والطيب لتطييب الشخص بعد الحلاقة ، ويستعمل الدهن لدهن الشعر وتليينه ، وكانت للقبائل عادات خاصة في حلاقة الشعر وقصه ، فأما أن يجعلوه يتدلى أو يصفروه ضفائر وجدائل تتدلى خلف الظهور أو تلقى على الأكتاف (٩) وقد ورد للحلاق ذكر في الحديث النبوي ، فعن أنس قال : « لقد رأيت رسولَ الله ﷺ والحَلاَّقُ يحلِقُ ، وأطافَ به أصحابُه فما يُريدون أنْ تقعَ شَعْرَةٌ إلا في يَدِ رَجُلٍ »(١٠) وفي حديث كعب بن عجرة : « فدعا الحَلاَّقَ فحَلَقَ رأسَهُ » (١١)

خضـــاب الشعر وصبغـــه :

كان القدماء يعتبرون الشعر الأشيب أكليل مجد ، والشعر الأبيض رمزاً للحكمة والجلالة (١٢) ، ذلك أن الرجل المسن له مكانة في نفوس الناس لأن تقدم العمر يكسبه خبرة وحكمة ، وكانوا وما زالوا يجلون الشيوخ ويقدمونهم في المجالس والحديث والمشورة ، ومازلنا نرى الأُمم المتقدمة تعتمد في سياستها على حكمة الشيوخ وصواب رأيها واتزان تفكيرها .

---

(٧) تاج العروس : حلق . ويقال للمرأة : عقرا حلقا ، أو عقرى حلقى ، إذا كانت مؤذية مشئومة . (اللسان : حلق) .

(٨) اللسان وتاج العروس : حلق ، وجواد على ٦٢٢/٤ .

(٩) جواد علي ٥٨٤/٧ .

(١٠) صحيح مسلم : فضائل ٧٠ وشرح النووي ١٧٩/٥ .

(١١) صحيح مسلم ٢٨٩/٣ كتاب الحج .

(١٢) قاموس الكتاب المقدس ٦١٩/١ .

على أن الشيب في الرأس أو الوجه كثيراً ما ينذر المرء بإدبار الحياة وأفول نجم العمر ، وكان الشعراء ومازالوا يشبهون الشيب بغبار معارك الزمن أو السيف المصلت على الرؤوس ، والمرأة والرجل في هذا سواء ، وإن كان حرص المرأة على إخفاء الشيب أشد من حرص الرجال ، وهذا أمر طبيعي . ولذلك حرص الناس منذ القديم على إخفاء الشيب بصبغه .

وأشهر أنواع الصبغ هو الخضاب بالحناء ، وبعض الخضاب أسود كالوسمة وقد خضبوا بالعظلم . و « الخِضَابُ » : كل ما يخضب من حناء وكتم ونحوه (١٣) سواء أكان للرأس أم للكف ، ولذلك يقول الأعشى : (١٤)

أرى رَجُـلاً منكم أسِيْفَاً كأنَّما يَضُمُّ إلى كَشْحَيْهِ كَفّاً مُخَضَّبَا

ويقال إن عبد المطلب أول من خضب بالسواد من العرب ، وكان رجل من حمير خضبه بذلك باليمن ، فلما استعمله بمكة أقتدى به أهلها ، وكانوا يخضبون بالحمرة (١٥) . والخضاب أحمر ، جاء في التهذيب : كل لون غير لونه حمرة فهو مخضوب ، وكل ما غيّر لونه فهو مخضوب وخضيب ، يقال : كف خضيب وامرأة خضيب . وقد فرقوا بين الخضاب بالحناء والصبغ ، فإذا كان بغير الحناء قيل صبغ شعره ولا يقال خضب (١٦) .

و « الحِنَّاءُ » (١٧) والحِنَّاءَةُ ما يخضب به ، والجمع حنّان ، وجاء هذا الجمع في الشعر في قول الشاعر : (١٨)

---

(١٣) اللسان : خضب .

(١٤) ديوان الأعشى ص ٨ واللسان : خضب .

(١٥) لطائف المعارف ص ١٢ والمعارف ص ٢٤١ والاعلاق النفيسة ص ١٩٢ ويقال ان أصل الخضاب هندي أخذه الفرس عن الهنود (مروج الذهب ١/١١٥) ثم انتقل من الفرس إلى العرب قبل الاسلام ، ثم انتشر الخضاب بين العرب فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة ، وبالزعفران للصفرة ، وبالوسمة للسواد (ألف باء ـ البلوى ٢/٣٤٤) .

(١٦) اللسان والتاج : خضب .

(١٧) أخذ الفرنسيون اسم الحناء من العربية فأسموها : Henné جنيبة صبغية من الفصيلة الحنائية ، وتسمى في بعض الأقطار العربية تمر حنا والاسم العلمي لها هو : Lawsonia inermis انظر الصحاح في العلوم : حنأ .

(١٨) اللسان : حنأ .

ولقد أروحُ بلِمَّةٍ فَيْنَانَةٍ سَوْداءَ لم تُخْضَبْ من الحِنّانِ

كانت الحناء تجارة أهل اليمن، وكانوا يخضبون بها الشعر واللحى والأطراف كذلك(١٩)، وإذا أرادوا الحصول على لون قاتم ليبدو الشعر أسود فاحماً خلطوا الحناء بالوسمة ، والحناء ورق نبات وكذلك الوسمة تدق الأوراق حتى تصير كالطحين الناعم جداً أو تطحن ، ثم تعجن بالماء فيخضب بها ، وقد يخلطون بالحناء دقيق ورق البشام فيسود الشعر(٢٠) . وقد تسمى الحناء باسم « العلّام » ، قال ابن الأعرابي : إنه الحِنَّاء (٢١) ، وجاء العلّام في شعر شداد بن مالك : (٢٢)

أظهرنَ من موتِ النبيِّ شَماتَةً وخَضبْنَ أيديهنَّ بالعلّامِ

ولأهمية الحناء وعنايتهم بها صارت لها أسماء كثيرة ، فمن أسمائها « اليُرَنَّاء » اسم للحناء ، قال ابن جني : وقالوا يرنأ لحيته ، صبغها باليرناء « اللسان : رنأ » .

وقد تسمى الحنّاء الرِّقَان والرَّقُون والإرْقَان ، وقيل : الرَّقُون والرِّقَان الزعفران ، وأنشدوا :(٢٣)

ومُسْمِعَةٍ إذا ما شِئْتُ غَنَّتْ مُضَمَّخَةِ التَّرائِبِ بالرِّقَانِ

وقيل الرقان والرقون : الزعفران والحنّاء ، ويبدو أن خلط الحنّاء بالزعفران هو الذي يسمى بالرقان وهو قول ابن خالويه (٢٤) ، وفي الحديث : « ثلاثَةٌ لا تقربهم الملائكةُ ، منهم المُتَرَقِّنُ بالزَّعْفَران » أي المتلطخ ، ويقال : رقن رأسه وأرقنه إذا خضبه بالحِنَّاء ، والراقنة المختضبة وهي الحسنة اللون ، قال الشاعر : (٢٥)

صَفْراءُ راقِنَةٌ كأن سُمُوطَها يجري بِهِنَّ إذا سَلِسْنَ جَدِيلُ

وامرأة راقنة أي مختضبة بالحناء ، قال أبو حبيب الشيباني : (٢٦)

---

(١٩) التاج : خضب .
(٢٠) التاج : بشم .
(٢١) اللسان : علم .
(٢٢) المحبر ص ١٨٦ .
(٢٣) اللسان : رقن .
(٢٤) اللسان : رقن .
(٢٥) اللسان : رقن .
(٢٦) اللسان : رقن . مكمثرة : قصيرة مجتمعة ، بهنكة : غضة ذات شباب ، عطبول : الحسنة التامة من النساء .

جاءت مكمثرةً تسعىَ ببَهْكَنَةٍ صفراءَ راقِنَةٍ كالشمس عُطْبُولِ

وكانت المرأة عند اختضابها بالرقان تبدو صفراء مشرقة يثير منظرها دهشة الرجال وربما كانت تتصدى لهم إذا هي اسفرت عن نفسها بهذا المنظر والمظهر ، ولذلك فإن أحد الشعراء يوصي ابنه بعد وفاته ، أن يراقب أُمه ، فإنها إن ارتقنت بالزعفران المخلوط بالحناء ، فيكون وردي اللون ، وتصدت للرجال ، أن يعمل فيها السيف ، ضرباً على العنق دونما رحمة أنشد ابن الأعرابي : (٢٧)

غِياثُ إنْ مُتُّ وعِشْتَ بعدي وأشْرَقَتْ أمُّكَ للتَّصَدِّي
وارتَقَنت بالزَّعفَرانِ الورديِّ فاضربْ فِداكَ والدي وجَدِّي
بينَ الرِّعاثِ ومَنَاطِ العِقْدِ ضربةَ لا وَانٍ ولا ابنِ عبدِ

وكان بعضهم يخضب لحيته بالرقان ، وإذا وضع الطيب أيضاً قيل ترقن بالطيب واسترقن ، كما تقول تضمَّخ . وكان الرجال يصبغون لحاهم بالزعفران وخاصة في الأعراس ، والصفرة عند أهل الحجاز من علامات الفرح والسرور ، ففي حديث أنس ابن مالك : أن عبد الرحمن بن عوف جاء إلى رسول الله ﷺ وبه أثر صفرة ، فسأله رسول الله ﷺ فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، قال كم سُقْتَ إليها ، قال : زِنَةَ نَواةٍ من ذهب ، قال رسول الله ﷺ : « أوْلِمْ ولو بِشَاةٍ »(٢٨) .

وقد خلطوا مع الحناء « الكَتَم » (٢٩) وخضبوا به الشعر ليكسبه نعومة وثباتاً ، والكتم نبت فيه حمرة ولا ينبت إلا في الشواهق ولذلك يقلّ ، وهو نبات أخضر وورقه كورق الآس أو أصغر منه ، قال الهذلي يصف وعلا : (٣٠)

ثم يَنُوشُ إذا آدَ النَّهارُ لهُ بعدَ التَّرَقُّبِ من نِيمٍ ومن كَتَمِ

---

(٢٧) اللسان : رقن .

(٢٨) عمدة القارى ٢٠/١٤٣ .

(٢٩) الكتم : هو القتم ، وقد وصف بأن له حباً كالفلفل وله نواة واحدة من جنس المرسين **Myrsine** والمرسين شجرة تنبت في المناطق الجبلية بأفريقية والبلاد الحارة والمعتدلة ثمرتها حسلة تشبه الفلفل في الشكل وتسمى فلفل القرود وكانت تستعمل قديما في الخضاب (الصحاح في العلوم : كتم) .

(٣٠) اللسان : كتم .

وفي حديث فاطمة بنت المنذر : « كنا نتمشَّطُ مع أسماءَ قبل الإحْرَام ونَدَّهِنُ بالمكتُومة » ، قال ابن الأثير : هي دهن من أدهان العرب أحمر يجعل فيه الزعفران ، وقيل : يجعل فيه الكتم ، وهو نبت يخلط مع الوسمة ويصبغ به الشعر أسود ، وقيل هو الوسمة(٣١) .

وإذا خُضب بالحناء مع الكتم جاء الخضاب أسود ، قال أبو حنيفة : يُشَبَّب الحناء بالكَتَم ليشتدَّ لونه ، وروى عن أبي بكر رضي الله عنه : « أنه كان يخضب بالحِنَّاءَ والكَتَمِ » (٣٢) ، وقال أُمية بن أبي الصلت : (٣٣)

وشَوَّذتْ شمسُهُمْ إذا طلعَتْ بالجُلْبِ هِفَّاً كأنَّهُ الكَتَمُ

قال ابن الأثير في تفسير الحديث : يشبه أن يراد به استعمال الكتم مفرداً عن الحناء ، فإن الحنَّاء إذا خضب به مع الكتم جاء أسود ، وقد صح النهي عن السواد ، قال : ولعل الحديث بالحناء أو الكتم على التخيير (٣٤) .

وقد يخضب بخلط الحناء والوسمة ، وتجعل الوسمة الشعر أسود فاحماً ، « والوَسْمَة »(٣٥) شجر باليمن له ورق يختضب به ، وقيل هو العِظْلِمُ ، والوسم والوسمة ورقها خضاب ، وفي حديث الحسن والحسين عليهما السلام « أنهما كانا يخضبان بالوَسْمَة » (٣٦) ، وعن أنس بن مالك : « أُتِيَ عبيدُ اللهِ بن زياد برأس الحسين بن علي عليه السلام فجعل في طست فجعل ينكت وقال في حسنه شيئاً فقال أنس : كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة » (٣٧) .

---

(٣١) اللسان : كتم .

(٣٢) عمدة القارى ٢٢/٥٠ .

(٣٣) اللسان : كتم . والأضداد ـ الانباري ص ١٣٤ .
وانظر جواد علي ٤/٦١٤ وقرأ البيت (وسودت) ظنا منه أن في الكلمة تصحيفا . وشوذت أي عممت أي أن الشمس إذا طلعت في فتحة كأنها عممت بالغبرة التي تضرب إلى الصفرة وذلك في سنة الجدب والقحط . الأضداد السابق ص ١٣٤ واللسان : شوذ .

(٣٤) اللسان : كتم .

(٣٥) أهل الحجاز يثقلونها وغيرهم يخففها ، شجر باليمن يختضب بورقه ، والوسمة **Isatis tinctoria** نبات عشبي زراعي للصباغ من الفصيلة الصليبية **Pastel** الصحاح في العلوم : وسم .

(٣٦) اللسان : وسم .

(٣٧) عمدة القارى ١٦/٢٤٠ .

وخضبوا « بالعِظْلِم » وهو عصارة بعض الشجر ، قال الأزهري : عصارة شجر لونه كالنيل أخضر إلى الكدرة ، وقيل صبغ أحمر ، وقيل هو الوسمة ، وقيل : هو الوسمة الذكر (٣٨) ، قال أبو حنيفة : وبلغني هذا في خبر عن الزهري أنه ذكر عنده الخضاب الأسود فقال : وما بأسٌ به ، ها أنذا أخضب بالعِظْلِم (٣٩) . وجاء في شعر الأعشى :(٤٠)

عليه دَيَابُوذٌ تَسَرْبَلَ تحتَه أرَنْدَجَ إسْكَافٍ يُخَالِطُ عِظْلِمَا

وكل هذه النباتات : العظلم والوسمة والكتم والحناء والزعفران والعصفر وغيرها تنبت في الحجاز واليمن ومواضع من الجزيرة العربية .

وقد استعملوا الزعفران كذلك في صبغ لحاهم وشعورهم ، واستعملوا لون الزعفران في صبغ ثيابهم وذلك لغلاء ثمن الزعفران الطبيعي (٤١) .

و « الزَّعْفَران » (٤٢) صبغ طيب الرائحة لونه أصفر وهو مما يصلح زينة للمرأة أكثر من الرجل ، وكره في الإسلام استعماله للرجال ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه : « نَهى أن يتزَعْفَرَ الرجل » (٤٣) ،

واستعملوا كذلك « العُصْفُرَ » ، وهو — فيما يقول الأزهري — نبات سُلافته الجِرْيَال ، وقال ابن سيده : العصفر هذا الذي يصبغ به ، منه ريفي ومنه بري وكلاهما نبت بأرض العرب (٤٤) .

و « الصَّبِيْبُ » : عصارة ورق الحناء والعصفر ، وقيل هو العصفر نفسه (٤٥) وهو شجر

(٣٨) قال أبو حنيفة : العظلم شجيرة من الربة تنبت أخيرا وتدوم خضرتها ، قال : أخبرني أعرابي من أهل السراة قال : العظلمة شجرة ترتفع على ساق نحو الذراع ولها فروع في أطرافها كنور الكزبرة وهى شجرة غبراء . (اللسان : عظلم) .

(٣٩) اللسان : عظلم .

(٤٠) المعرب ص ١٦ وديوان الأعشى ص ١٨٧ .

(٤١) جواد على ٤/٦١٤ .

(٤٢) الزعفران بالفرنسية **Safaran** من الأصل اللاتيني **Safranum** ، وهذه من الزعفران العربية ، والاسم العلمي **Crocus** جنس نباتات بصلية معمرة من الفصيلة السوسنية فيه أنواع برية ونوع صبغي طبي مشهور . الصحاح في العلوم : زعفران .

(٤٣) عمدة القارى ٢٢/٢٢ واللسان : زعفر .

(٤٤) اللسان : عصفر . التاج : عصفر .

(٤٥) التاج : صبب .

يشبه السَّذاب يختضب به ، وقيل : هو السَّنَاء الذي تخضب به اللِّحاء كالحناء ، وجاء في شعر علقمة بن عبدة : (٤٦)

فأوْرَدَهـا مـاءً كأن جِمَامَـهُ من الأجْنِ حِنَّـاءً معا وصَبِيْبُ

وفي حديث عقبة بن عامر : « أنه كان يختضب بالصَّبِيب » (٤٧) ، قال أبو عبيدة : « وقد وُصف لي بمصر ولون مائه أحمر يعلوه سواد » وقيل : الصبيب : العصفر المُخْلَص ، وهو يشبه الوسمة ، وأنشد : (٤٨)

يبكونَ من بعدِ الدُّمُـوعِ الغُـزَّرِ دَماً سِجَالاً كصَبِيبِ العُصْفُـرِ

ومن النباتات التي استعملت في الخضاب أيضاً « الخِطْر » ، وهو نبات يجعل ورقه في الخضاب الأسود يختضب به ، قال أبو حنيفة : هو شبيه بالكتم وكثيراً ما ينبت معه ، يختضب به الشيوخ ، وقالوا : لحية مخطورة ومخطَّرة ، مخضوبة به (٤٩) . والخطر من النباتات التي تكون في اليمن (٥٠) .

وقد اختضب الصحابة ، واختضب أبو بكر وعمر ، واختلف في خضاب رسول الله ﷺ ، وفي صحيح مسلم : « سئل أنس بن مالك عن خضاب النبي ﷺ فقال : لو شِئتُ أن أعُدَّ شَمَطَاتٍ كُنَّ في رأسِه فَعَلْتُ ، وقال : لم يختضِبْ ، وقد اختضبَ أبو بكر بالحِنَّاءِ والكَتَم ، واختضب عمرُ بالحِنَّاءِ بَحْتَاً »(٥١) . وقد حث رسول الله ﷺ على الصبغ ، فعن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « إنَّ اليهودَ والنصارى لا يصبغونَ فخالِفُوهم » (٥٢) ، وكانوا يخضبون بالحناءِ والكَتَم وروي عن النبي حَثٌّ على خضاب الشيب بهما ، فعن أبي ذرٍّ أن النبي ﷺ قال : « إن أحسنَ ما غُيِّرَ به الشَّيبُ الحِنَّاءُ والكَتَمُ » (٥٣) ، ولا يستحب الخضاب بالسواد (٥٤) .

---

(٤٦) المفضليات ص ٣٩٣ والصحاح واللسان : صبب . (٤٧) اللسان : صبب .

(٤٨) اللسان : صبب . (٤٩) اللسان : خطر .

(٥٠) كان الأصمعي يقول : أربعة ملأت الدنيا ولا تكون إلا باليمن : الورس والكندر (هو اللبان الذكر) والخطر والعقيق . (لطائف المعارف ص ١٦٦) .

(٥١) صحيح مسلم : فضائل ١٠١ وصحيح مسلم بشرح النووي ١٩٢/٥ .

(٥٢) عمدة القارى ٥٠/٢٢ .

(٥٣) تحفة الأحوذي ٤٣٥/٥ .

(٥٤) عمدة القارى ٥٠/٢٢ ـ ٥١ .

أما الخضاب بالوسمة فكان للشَّعَر ، وأكثر ما تستعمله النساء والمسنات منهن خاصة ، وكذلك الشيوخ للغش ، فإذا ما خطب رجل امرأة ظنها أصغر من عمرها أو ظنته أصغر مما هو ، وقد نهى الإسلام عن هذا لما فيه من غش وتدليس (٥٥) ، ويستدلون على النهي عن الخضاب بالسواد للرجال بحديث جابر بن عبد الله قال : « جِيءَ بأبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ وكأن رأسهُ ثَغَامة ، فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به إلى بعضِ نسائه فلتغيِّرهُ بشيءٍ وجنِّبوهُ السَّوادَ » (٥٦) .

وكان الخضاب ومازال من علائم الزينة يخضب به شعر الرأس واللحى إظهاراً للفرح وإخفاء للشيب ، وتخضب النساء شعورهن وأيديهن وأقدامهن عند الفرح ، وكذلك عند الشماتة بالأعداء ، ومما شُهِر في التاريخ في خضاب الشماتة ، خضاب النسوة المتمنيات موت الرسول ﷺ ، من كندة وحضرموت ، فلما جاء نعي رسول الله ﷺ ، خضبن أيديهن بالحناء ، وضربن بالدفوف ، فخرج إليهن بغايا حضرموت ، وهن نيف وعشرون امرأة ، ففعلن كفعلهن ، فكتب شداد بن مالك إلى أبي بكر الصديق بقوله : (٥٧)

ابْلِغْ أبا بكرٍ إذا ما جِئْتَهُ ... أنَّ البَغَايَا رُمْنَ كُلَّ مَرَامِ

أظهرْنَ من موتِ النَّبيِّ شَمَاتَةً ... وخَضَبْنَ أَيديهِنَّ بالعِلاَّمِ

فاقْطَعْ هُدِيتَ أكُفَّهُنَّ بِصَارِمٍ ... كالبَرْقِ أومضَ في مُتُونِ غَمَامِ

فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أُمية بقطع أيديهن ، ففعل (٥٨) .

الخِضَاب في الشَّعْر :

وقد أُعجب الشعراء بمنظر الخضاب في أيدي النساء وأقدامهن وشعورهن فراقهم ذلك ، وذكروا المواد التي تختضب بها النساء ، وكان امروءُ القيس من أوائل من ذكروا الحناء في

---

(٥٥) زاد المعاد ١٨٣/٣ .

(٥٦) رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي انظر نيل الأوطار ـ الشوكاني ١٤٠/١ .

(٥٧) المحبر ص ١٨٦ .

(٥٨) المحبر ص ١٨٤ ـ ١٨٩ وفيه تفصيل الخبر وأسماء النسوة المتمنيات وفيهن هر بنت يامن اليهودية التي كان يضرب بها المثل في الزنا فيقال : (أزني من هر) .

تشبيه دم الصيد الذي خضب صدر فرسه بالحناء في الشعر الأشيب المرجل : (٥٩)

كأنّ دِمَاءَ الهَـادِيَاتِ بنَحْـرِهِ عُصَـارةُ حِنَّـاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ

أما كعب بن الأشرف فيتغزل بامرأة قد طلت جسمها بالطيب والزعفران وتخضبت بالحناء والكتم ، فيعجبه ذلك فيقول : (٦٠)

صفراءُ رَادِعَةٌ لو تُعْصَرُ انعصرتْ من ذِي القوارير والحِنَّاءِ والكَتَمِ

وكان الكتم زينة المترفين من النساء والرجال ، أنشد ابن الأعرابي : (٦١)

أولئك أخداني وأخلالُ شِيمتي وأخدانُكَ اللائي تزَيَّنَّ بالكَتَمْ

ويعجب زهير ببنان صاحبته الجميلة المترفة التي كانت تريه إياه عند الرحيل وساعة الوداع ، واستحلى منها بنانها المخضوب بالحنّاء : (٦٢)

خَوْدٌ مُنَعَّمَةٌ أنِيقٌ عيشُها فيها لِعينِكَ مَكْلأٌ وبَهَاءُ
وكأنَّها يومَ الرَّحِيلِ وقد بَدَا منها البَنَانُ يَزِينُه الحِنَّاءُ
بَرْدِيَّةٌ في الغِيْلِ يَغْذو أصلَها ظِلٌّ إذا تَلَعَ النَّهارُ ومَاءُ

ويستوقف المرارَ الفقعسي منظرُ حبيبته وبنانها الخضيب وهي تستاك ، وقد أحاطت أصابعها البيض الناعمة المخضبة بالسواك تحركه في فمها وقد سُقِي عود البشام هذا من شهد ثغرها : (٦٣)

هَنِيئاً لخُـوْطٍ من بَشَامٍ تَرُفُّـهُ إلى بَـرَدٍ شُهْدٌ بهـنَّ مَشُـوبُ
بما قد تسَقَّى من سُلافٍ وضَمَّـهُ بنَانٌ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ خَضِيبُ

ويشبه المرقش الأكبر بنان حبيبته المخضوب بالعنم وهو شجر أحمـر : (٦٤)

---

(٥٩) ديوان امريء القيس ص ٥٦ .
(٦٠) تاريخ الطبري ٣/٣ .
(٦١) اللسان : خلل ، وديوان كعب بن زهير ص ٦٣ .
(٦٢) ديوان زهير ص ٣٤٠ .
(٦٣) اللسان : سقى . والمرار من الشعراء الاسلاميين والاستشهاد بشعرهم يمثل استمرار الفن الجاهلي في العصر الاسلامي وبخاصة لدى شعراء البادية .
(٦٤) المفضليات ص ٢٣٨ .

النَّشْرُ مِسْكٌ والوجوهُ دَنَا نِيرُ وأطرافُ البَنَانِ عَنَمْ

ويلمح النابغة حركة المتجردة حين سقط خمارها فتناولته واتقت أعين الناظرين بكف لطيف ناعم مخضبة أصابعه ، فتعجبه هذه الحركة ويثيره هذا المشهد فيقول : (٦٥)

سقط النّصيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطَهُ فتَنَاولَتْهُ واتَّقَتْنَا باليَدِ

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يكادُ من اللَّطَافةِ يُعْقَدُ

وتدرك المرأة ما يثيره خضابها في نفوس الرجال وبخاصة إذا كان الكف رخصا والبشرة بيضاء ناصعة والخضاب أحمر زاهياً ، ولذلك نراها تحاول أن تظهر محاسنها هذه بالحركة والتلويح والإشارة ، يقول الأعشى : (٦٦)

وأرَتْكَ كَفًّا في الخِضَابِ وسَاعِداً مِثْلَ الجِبَارَة

الخِضَاب والشيب :

وطالما وقف الشعراء عند الخضاب الذي يخفون به آثار الشيب ، وراجعوا أنفسهم بعد تقدم العمر ، هل يخفى بياض اللِّمة الخضابُ ، وهل يعيد لهم الشباب وهل يدفع عنهم الشيخوخة والضعف والكبر ، إنهم يخضبون شعورهم تشبهاً بالشباب وتشبثاً بأهداب الصبا ، ولكن هل يرجع الخضاب الشباب وهل يخفى الخضاب آثار السنين ، إنها الحسرة الخالدة التي طالما نفثها المسنون الذين ولى عنهم عهد النشاط والقوة والفتوة ، ولا يبقى من عهد الشباب لهم – ولنا – الا ذكرى عزيزة يلحون على ذكرها وتكرار الحديث عنها بنغمة لا تخلو من الأسى ، ونبرة لا تخفي الحسرات ، هذا المرقش الأكبر يتحدث عن شيبه ولمته وخضابها ، ويقدم في أبياته صورة دقيقة رائعة فيشبه شيب رأسه بزهر الأقحوان ، وزهر الأقحوان أبيض وقد نما في رأسه الذي غادره الشعر فغدا أصلع ، وهذا يذكره بالأرض الجرداء التي لم تمطر بين أرضين ممطورتين ، ومع ذلك فمازال في لمته سواد يشبه لون الغراب ، يقول(٦٧) :

هل يَرْجِعَنْ لي لِمَّتِي إنْ خَضَبْتُهَا إلى عَهْدِهَا قبلَ المَشِيبِ خِضَابُهَا

رأتْ أُقْحُوَانَ الشَّيْبِ فوقَ خَطِيطَةٍ إذا مُطِرَتْ لم يَسْتَكِنَّ صُوءابُهَا

(٦٥) ديوانه ص ٤٠ .

(٦٦) ديوان الأعشى ص ٧٦ .

(٦٧) المفضليات ص ٢٣٦ .

فإن يُظْعِنِ الشَّيْبُ الشَّبَابَ فقد تُرَى بِهِ لِمَّتِي لم يُرْمَ عنها غُرَابُهَا

وأكثر ما يرد ذكر الشيب والشيخوخة حين تنظر المرأة لى الرجل وتجيل بصرها في شعره الأشيب ، فتهزأ به وتزورّ عنه ، وليس له إلا أن ينكر عليها ذلك ، ويذكرها بأيامه الخالية وشبابه الدابر ، وأنه قضّى أوطاراً وعاش حياة عريضة حافلة مونقة ، وكذلك يقول المرار بن منقذ : (٦٨)

عَجَبٌ خَوْلَةُ إذْ تُنْكِرُنِي أمْ رأتْ خَولةُ شيخاً قد كَبُرْ
وكَسَاهُ الدهرُ سِبّاً ناصِعاً وتَحَنَّى الظَّهرُ منهُ فأُطِرْ
إن تَرَيْ شَيْباً فإنِّي ماجدٌ ذو بَلاءٍ حَسَنٍ غَيْرُ غُمُرْ
ما أنا اليومَ على شَيءٍ مَضَى يا ابْنَةَ القومِ تَولّى بحَسِرْ

ولم يخف المزرد بن ضرار الغطفاني نفوره من الشيب وحنينه إلى أيام الشباب وإن الشيب حين يملأ الرأس لا تخفيه الحناء فسرعان ما يدب تحت الخضاب شعر جديد كنبات الثغام أبيض الزهر والثمر ، يزيح الخضاب فيفضح الشيوخ ويكشف حقيقة العمر ، وحنين الشاعر أبداً إلى عهد الشباب ، عهد البهجة واللهو والغزل : (٦٩)

صَحَا القلبُ عن سَلْمَى ومَلَّ العَوَاذِلُ وما كادَ لأياً حُبُّ سَلْمَى يُزَايِلُ
فُؤادي حتَّى طارَ غَيُّ شَبِيبَتِي وحتَّى عَلاَ وَخْطٌ من الشَّيْبِ شَامِلُ
يُقَنِّئُهُ ماءُ اليُرَنَّاءِ تحتَهُ شَكِيرٌ كأطرافِ الثَّغَامةِ نَاصِلُ
فلا مَرْحَبَا بالشَّيب من وَفْدِ زائرٍ متى يَأتِ لا تُحْجَبْ عليه المَدَاخِلُ
وَسقْياً لرَيْعَانِ الشَّبابِ فإنَّهُ أخو ثِقَةٍ في الدَّهْرِ إذْ أنا جاهِلُ

وليس للشعراء من دفع وصمة الشيب إلا التغني بالأمجاد وإنهم مازالوا أبطالاً يخوضون الغمرات ويجدلون الخصوم وينحرون الإبل ويطعمون الضيفان وينصرون المولى والمستغيث ويفعلون ويفعلون على شاكلة قول ربيعة بن مقروم الضبي :(٧٠)

---

(٦٨) المفضليات ص ٨٢ .

(٦٩) المفضليات ص ٩٣ - ٩٤ . اليرناء : الحناء .

(٧٠) المفضليات ص ٣٧٥ .

فـأمَّا تَرَيْني قد تَرَكتُ لجَـاجَتي وأَصْبَحتُ مُبْيَضَّ العِذَارَيْنِ أَشْيَبَا
فَيا رُبَّ خَصْمٍ قد كَفَيْتُ دِفَاعَـهُ وقَـوَّمْتُ منـهُ دَرْأَهُ فتَنَكَّبَـا

ويستمر في تعداد فضائله : « ومولى على ضَنْكٍ » ، « وأضيافِ ليلٍ » ، « وفتيانِ صِدْقٍ » إلى آخر ما يعدد من مكارمه وبطولاته (٧١) .

ولا أصدق من سلامة بن جندل الذي يتحسَّر على أيام الشباب وأنهُ يذهب سريعاً يحث الخطى وخلفه الشيب يطلبه بل يطارده بسيفه الأبيض ، ويذهب الشباب بأمجاده ولذاته ومباهجه ، ويبقى الشيب والكبر مع ما يخلف الزمن من ضعف وأوجاع : (٧٢)

أودَى الشَّبابُ حَمِيداً ذو التَّعَاجِيبِ أوْدَى وذلك شَأوٌ غيرُ مطلوبِ
ولَّيَ حَثِيثا وهـذا الشَّيْبُ يطلُبُـهُ لو كان يُـدْرِكُهُ رَكْضُ اليَعَاقِيبِ
أودَى الشبابُ الذي مَجْـدٌ عَواقِبُهُ فيـهِ نَلَـذُّ ولا لَـذَّاتِ للشَّيْبِ

---

(٧١) وانظر كذلك قصائد في هذا المعنى في المفضليات لعوف بن عطية ٤١٣ وربيعة بن مقروم ١٨٦ وعبد الله بن سلمة الغامدي ١٠٤ والمرار بن منقذ ٨٢ وسلامة بن جندل ١٢٠ ومعاوية بن مالك ٣٥٧ والأسود بن يعفر ٢١٨ ، وفي الأصمعيات : عمرو بن معد يكرب ١٧٤ وعبد الله بن جنح النكري ١١٤ ودوسر بن ذهيل ١٥٠ ومالك بن حريم ٦٤ وخفاف بن ندبة ٢٢ .

(٧٢) المفضليات ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

مصـــــادر البحث

إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – القسطلاني : أحمد بن محمد ، ط دار الكتاب العربي بيروت ، مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢٣ هـ .

الأصمعيات – الأصمعي ، تحقيق شاكر وهارون ، ط دار المعارف مصر ١٩٧٩ م .

الأعـــلاق النفيسة – ابن رستة ، ط ليدن ١٨٩١ م .

الأغـــاني – أبو الفرج الأصفهاني ، ط دار الشعب مصورة عن دار الكتب .

ألف بـــاء – البـــلوى ، ط بولاق ١٢٨٧ هـ .

الألفاظ الفارسية المعربة – آدي شير الكلداني ، ط بيروت ١٩٠٨ م .

الإنجيـــل (العهـــد الجديد) – الترجمة الكاثوليكية ، ط بيروت ١٩٦٠ م .

بلوغ الإرب – الألوسي : محمود شكري ، تصحيح محمد بهجة الأثرى ، ط دار الكتاب العربي مصر ١٣٤٢ هـ .

تـــاج العروس – الزبيدي : محمد مرتضى ، ط الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .

تاريخ الطـــبري – الطـــبري : محمد بن جـــرير ، ط الحسينية .

تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي – محمد عبد الرحمن المباركفوري ، ط دار الفكر بيروت ١٩٧٩ م .

التزيق والحلي في العصر العباسي – زكية عمر العلي ، ط دار الحرية بغداد ١٩٧٦ م .

التلخيص في معرفة الأشياء – أبو هلال العسكري ، تحقيق عزة حسن ط دمشق ١٩٥٩ م .

الحياة العربية في الشعر الجاهلي – أحمد الحوفي ، ط دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٢ م .

الحيـــوان – الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الحلبي مصر ١٩٤٨ م .

ديـــوان الأعشى – ط صادر بيروت ، بدون تاريخ .

ديـــوان امريء القيس – ط صادر بيروت ، و ط دار المعارف مصر ١٩٥٨ م .

ديـــوان زهير بن أبي سلمى – ط دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م .

ديوان سحيم عبد بني الحسحاس – تحقيق عبد العزيز الميمني ، ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠م .
ديوان طرفة بن العبد – ط صادر بيروت ١٩٦١ م ، ط دمشق ١٩٧٥ م .
ديوان عبيد بن الأبرص – ط صادر بيروت ١٩٦٤ م .
ديوان علقمة الفحـــل – ط سيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٣٥ م .
ديوان عنترة بن شداد – ط سعيد مولوى ، دمشق ١٩٧٠ م ، ط شلبي مصر .
ديوان قيس بن الخطيم – تحقيق ناصر الدين الأسد ، ط صادر بيروت ١٩٦٧ م .
ديوان كثير عزة – تحقيق إحسان عباس ط دار الثقـــافة بيروت ١٩٧١ م .
ديوان كعب بن زهير – ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
ديوان لبيد بن ربيعة – ط صادر بيروت .
ديوان النابغة الذبيـــاني – ط صادر بيروت .
ديوان يزيد بن مفرغ – ط بغـــداد ١٩٦٧ م .
رسائل الجاحظ – الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط مصر ١٩٦٤ م .
زاد المعاد في هدى خير العباد – ابن قيم الجوزية ، ط بيروت ١٩٧٩ م .
سنن الترمذي (الجامع الصحيح) – الترمذي ، شرح أحمد شاكر ط مصر .
سنن أبي داود – أبو داود ، تضحيح محيي الدين عبد الحميد ، ط مصر ١٩٣٦ م .
سنن النسائي – النسائي ، ط الحلبي مصر ١٣١٢ هـ .
الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – يحيى الجبوري ، ط بيروت ١٩٧٩ م .
الصحاح – الجوهري « الصحاح في اللغة والعلوم » إعـــداد وتصنيف نديم وأُســـامة مرعشلي ، ط بيروت .
صحيح مسلم « الجامع الصحيح » – مسلم بن الحجاج ، ط بولاق ١٣٢٩ هـ .
صحيح مسلم بشرح النووي ، بعناية عبد الله أحمد أبو زينة ، ط الشعب ١٩٧٣ م .
عمـــدة القـــاريّ شرح صحيح البخاري – البدر العيني ، ط دار الفكر بيروت . د . ت.
عيون الأخبار – ابن قتيبة ، ط دار الكتب المصرية ، تصوير الهيئة المصرية ١٩٧٣ م .
الكامل في التاريخ – ابن الأثير ، ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ م .
لسان العرب – ابن منظور ، ط الأميرية بولاق ١٣٠٠ هـ .
لطائف المعارف – الثعالبي ، تحقيق الأبياري والصيرفي ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .

المحـــبر – ابن حبيب ، ط دائرة المعارف العثمانية ، الهند ١٩٤٢ م .
المرأة في الشعر الجاهلي – أحمد الحوفي ، ط المدني مصر ١٩٦٣ م .
مروج الذهب – المسعودي ، ط بولاق ١٢٨٣ هـ .
مسند ابن حنبل – أحمد بن حنبل الشيباني ، ط الحلبي مصر ١٣١٣ هـ .
المعـــارف – ابن قتيبة ، ط القاهرة ١٩٣٤ م .
المعـــاني الكبير – ابن قتيبة ، ط دائرة المعـــارف العثمانية ، الهند ١٩٤٩ م .
معجم البلدان – ياقوت الحموي ، ط صادر بيروت د . ت .
معجم الشعراء – المرزباني ، تحقيق عبد الستار فراج ط مصر ١٩٦٠ م .
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث – فنسنك ، ط ليدن ٣٦ – ١٩٦٩ م .
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .
المعرب من الكلام الأعجمي – الجواليقي ، تحقيق أحمد شاكر ، ط دار الكتب المصرية . ١٩٤٢ م .
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – جواد علي (يشار إليه في البحث باسم المؤلف اختصاراً) ط دار العلم للملايين بيروت ٧٦ – ١٩٧٨ م .
المفضليات – المفضل الضبي ، تحقيق محمود شاكر وهارون ، ط دار المعارف مصر ١٩٧٦ م.
نهاية الإرب – النويري ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م .
نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار – الشوكاني : محمد بن علي بن محمد ، ط الحلبي مصر .

Corson R. : Fashions in Hair. (London)
Hasting J. : A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents.
Ranke H. : The Art of Ancient Egypt. (Vienna 1936).
Schaff Philip : Dictionary of Biblical, Historical Doctorinal, and Practical Theology 1894.